المجتمع المسلم
في ضوء سورة الحجرات

د/ محمد سعيد محمد عرام

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا. ماكثين فيه ابدا[1].

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى ارسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وانزل عليه كتابا تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه فى احسان الى يوم الدين.

امـــا بعـــد...

فموضوع هذا البحث إن شاء الله تعالى هو:

المجتمع المسلم فى ضوء سورة الحجرات:

ويجدر بنا ان نعرف بسورة الحجرات. وذلك قبل ان ندخل الى ما اشتملت عليه من آداب ومقاصد نما وترعرع فى كنفها مجتمع اسلامى كريم طاهر القلب نظيف اللسان حسن المعاشرة صادق الإيمان مراع حق الله تعالى ومقر مشيئته فى كل شئ بحيث تكون كلمة الله هى العليا دائما.

فسورة الحجرات سورة مدنية باتفاق العلماء أى أنها نزلت على رسول الله صلى الله هليه وسلم بالمدينة المنورة بعد سورة المجادلة وقد نزل معظم هذه السورة على النبى صلى الله عليه وسلم فى العام التاسع من الهجرة المباركة. وهى السورة رقم ٣٩ حسب ترتيب السور فى المصحف الشريف وعدد آيات سورة الحجرات ثمانى عشرة آية وعدد كلماتها ثلاثمائة وثلاث واربعون كلمة وعدد حروفها ألف واربعمائة وستة

---

(١) سورة الكهف اية ٢ ٣

وسبعون حرفا . . وسميت السورة بسورة الحجرات لاشتمالها على ذكر حجرات النبى صلى الله عليه وسلم التى ناداه وفد بنى تميم من ورائها فى وقت القيلولة حيث كان صلى الله عليه وسلم مستريحا من حرارة الجو وقت الظهيرة.

هذا . . . وسورة الحجرات هى احدى سور القرآن الكريم كلام الله تعالى وكتابه الخالد الذى ختم به الكتب المنزلة، وأنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذى ختم به الأنبياء عليهم السلام ليكون دستور الخالق لأصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، حيث انهى اليه منزله سبحانه كل تشريع وأودعه كل نهضة وناظ به كل سعادة ، وجعله مستند الأسلام فى عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وأخلاقه وآدابه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه "من جعله أمامه قاده الى الجنة ومن جعله خلفه ساقه الى النار" كما أنه مأدبه الله سبحانه التى يأخذ منها العبد ماشاء لما يشاء قال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[1].

وقد افتتحت سورة الحجرات بـ "**يا ايها الذين آمنوا..**" وذكر هذا اللفظ وهو للنداء بوصف الإيمان فى هذه السورة خمس مرات. والمخاطب فيها المؤمنون - والمخاطب به أمر أو نهى. وذكر فيها "**يا ايها الناس ..**" مرة واحدة والخطاب فيها يعم المؤمنين والكفرة كما أن المخاطب به وهو قوله تعالى "**انا خلقناكم من ذكر وانثى..**" يعمهما فناسب فيها ذكر الناس . .

هذا واذا انتقلنا الى مقاصد السورة الكريمة لبيان أثر هذه المقاصد وما اشتملت عليه من آداب فى بناء مجتمع مسلم متماسك الأركان قوى البنيان وجدنا سورة الحجرات على الرغم من قصرها سورة جليلة القدر عظيمة النفع تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة، وتثير فى النفس والذهن خواطر عميقة ومعانى كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب ومبادئ التشريع

---

(١) *سورة النحل آية ٨٩.*

والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات وما يحقق المجتمع الأسلامى الذى ينشده القرآن الكريم ويدعو اليه.

يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله: وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم، والتى تكفل قيامه أولا ، وصيانته أخيرا، عالم يصدر عن الله ويتجه الى الله، ويليق أن ينتسب الى الله، عالم نقى القلب نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة، عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله "صلى الله عليه وسلم" وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب فى هواجس ضميره، وفى حركات جوارحه، وفى الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه[1].

والمجتمع المسلم فى ضوء سورة الحجرات يقوم على الأسس التالية:

اولا: اتباع منهج الله تعالى:

منهج الله تعالى هو دينه الذى ارتضاه لعباده، وشرعه الذى ضمنه سعادتهم فى الحياتين الدنيا والآخرة. وهو الهدى الذى لا يقبل التحريف ولا يصلح الأنسانية غيره، ولا تستقيم امرها إلا بهداه. فمن اتبع هذا المنهج واتخذ من الكتاب والسنة نورا يهتدى به فى جميع شئونه هداه ربه سبل السلام وأخرجه من الظمات الى النور وهداه الى صراط مستقيم قال تعالى **"قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"**[2] وقال سبحانه **"فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى"**[3] ومن أعرض عن المنهج، اتبع السبل التى تفرقت به عن سبيل الله وجرى وراء النظم القاصرة التى ابتدعها

---

(١) *أنظر كتاب فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ٦ ص ٣٣٣٥ طبعة دار الشروق.*

(٢) *سورة المائدة آية ١٥، ١٦.*

(٣) *سورة طه آية ١٢٣.*

البشر القاصرون لأنفسهم بوحى من شياطين الأنس والجن فقد ضل وغوى واهدر كرامته. ودمر إنسانيته، وكان عاقبة أمره خسر. قال تعالى **"ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى. قال رب لما حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة اشد وابقى"**[1]

واتباع منهج الله تعالى إنما يتحقق بالتطبيق العملى لشرع الله، فلا حكم إلا بما أنزل الله ولا قضاء إلا بما قضى الله ورسوله قال تعالى **"يايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله وروسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم"**[2] أى يا أيها الذين آمنوا: لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا، لا فى خاصة انفسكم، ولا فى أمور الحياة من حولكم، ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم

يقول الضحاك في معنى قوله تعالى **"لا تقدموا بين يدى الله ورسوله"** اى لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم - ويقول ابن عباس رضى الله عنهما: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة [3]

وصدق الله اذ يقول (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)

وعلى نهج الاتباع لمنهج الله تعالى سار الصحابة رضوان الله عليهم، وبهذا الأدب الرفيع تأدبوا مع ربهم سبحانه، ومع نبيهم صلى اله عليه وسلم، فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وماعاد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله

---

(١) سورة طه آية ١٢٤ . ١٢٧

(٢) سورة الحجرات آية ١

(٣) تفسير القرآن لابن كثير حـ٤ ص ٥ ٢

صلى الله عليه وسلم أن يدلى به، وماعاد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه بإسناده عن معاذ ابن جبل رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الى اليمن فقال (كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟) قال: أقضى بما فى كتاب الله، قال (فإن لم يكن فى كتاب الله؟) قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال (فإن لم يكن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟) قال: أجتهد رأيى لا آلو، قال: فضرب رسول اله صلى اله عليه وسلم صدرى ثم قال (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] فقد آخر معاذ رضى الله عنه رأيه ونظره واجتهاده الى مابعد الكتاب والسنة ولم يقدم رأيه عليهما: لأنه لو قدم رأيه عليهما قبل البحث عنهما لكان ذلك من باب التقديم المنهى عنه بين يدى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ويبرز سؤال هنا: لماذا العمل بمنهج الله؟.

وللأجابة على هذا السؤال نقول: لأن منهج الله هو المنهج الذى يرعى خصائص الإنسان ويحترم إنسانيته ويحقق خلافته عن الله فى الأرض - كما أنه المنهج الذى يرسم للبشر خطة السير الصحيح وسلوك السبيل الأقوم فى الحياة لتحقيق اسمى الغايات وإدراك السعادة الكاملة للأفراد والجماعات.

إن العمل بمنهج الله تعالى فيه الخير كل الخير والسعادة الدائمة فى الدنيا، والفلاح والجنة فى الآخرة. أما السعادة الدنيوية فالأمثلة على ذلك كثيرة من ماضى هذه الأمة حينما كانت تحكم شرع الله وتعمل دائما بمنهج الله: فقد سادت الدنيا كلها ورفرفت رايات التوحيد فى مشارق الأرض ومغاربها، وبسط الإسلام سلطانه على ربوع المعمورة وصارت للمسلمين الكلمة العليا لما أعلوا كلمة الله فى العالمين، وصدق

(١) مسند الإمام احمد بن حنبل حـ ٥ ص ٢٣٠، ٢٤٢.

الله تعالى إذ يقول "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون"(١) وقال تعالى "من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"(٢).

وقال تعالى "فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى"(٣).

هذه هى النتائج الحتمية فى الدنيا لمن التزم بمنهج الله تعالى.. وأما الفلاح والجنة فى الآخرة: فلأنهما النتيجة الحتمية لأولياء الله وعباده المتقين. قال تعالى "تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا"(٤) وقال سبحانة "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا. خالدين فيها لا يبغون عنها حولا"(٥) وقال تعالى "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا لهم فيها ازواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا"(٦).

وأما عدم العمل بمنهج الله والخروج على أمر الله تعالى : ففيه الشقاء كل الشقاء والضنك كل الضنك فى الدنيا، والعذاب الأليم فى الآخرة قال تعالى "ومن اعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى. قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة اشد وابقى"(٧).

---

(١) سورة النور اية ٥٥.
(٢) سورة النحل اية ٩٧.
(٣) سورة طه اية ١٢٣.
(٤) سورة مريم اية ٦٣.
(٥) سورة الكهف آية ١٠٧، ١٠٨.
(٦) سورة النساء اية ٥٧.
(٧) سورة طه اية ١٢٤-١٢٧.

وقال تعالى أيضا "**ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا**"[1] هذا وإن الأمثلة الدالة على شقاء وتعاسة الخارجين على المنهج كثيرة: ففى أوربا وفى أمريكا وفى روسيا بل وفى بعض بلدان المسلمين أشياء كثيرة مما يخجل الإنسان عن ذكره ويستنكف اللسان عن النطق به مما يهدر إنسانية الإنسان وكرامته ويستحق المرتكبون له أن يمطروا بعذاب الله كما أمطرت قرى لوط عليه السلام فى الماضى بحجارة من سجيل (مسومة عند ربك للمسرفين).

وما إنتشار مرض الإيدز فى الشرق والغرب فى أكثر البلاد تحضرا كأمريكا وروسيا وغيرهما إلا دليل واضح على صحة ما نقول من أن البعد عن منهج الله سبب التعاسة فى الدنيا والآخرة.

كما أن انحراف الشباب من الجنسين فى سن مبكرة وانغماسهم فى الموبقات والشذوذ ورذيلة المخدرات التى إستشرى خطرها فى العصور المتأخرة - وظاهرة القلق والإكتئاب النفسى، وانعدام الروح الجماعية فى الأسرة والمجتمع، وتفكك الأسرة وضعف الرابطة الأسرية مما يترتب عليه انعدام الشعور بالحنان والدفء والتكافل والرحم العائلى وغير ذلك من الأمور التى تؤكد أن البعد عن منهج الله فيه الشقاء كل الشقاء، والتعاسة كل التعاسة فى الدنيا والآخرة.. وإننا من خلال نظرتنا إلى عالم اليوم ومايعيشة من حياة القلق والأضطراب فى جميع احواله نتيجة البعد عن شرع الله وعدم الألتزام بمنهج الله - نجد الحاجة ملحة الى تطبيق شرع الله فى جميع نواحى الحياة، التى وسعها كلها والحمد لله، حتى تطمئن نفوس البشرية الحائرة، وتهدأ احوالها، ويجد الإنسان الأمن الذى يرجوه، والسكينة التى نشدها ..

هذا .. ومما يؤكد وجوب الألتزام بمنهج الله، والحكم بما أنزل الله، تطبيق شرع الله فى جميع نواحى الحياة قولة تعالى "**.. ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم**

---

(١) سورة الجن آية ١٧.

الكافرون" ثم قوله تعالى "... ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون" ثم قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون"[1] فأن هذه الآيات الثلاث وإن كانت قد نزلت فى أهل الكتاب كما هو الواضح من أسباب النزول لهذه الآيات الكريمة - فإن المذهب الحق الذى ذهب إليه جمهور العلماء والأئمة سلفا وخلفا: أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم ينسخ، و ما لم يرد فى شرعنا ما يخالفه . . .

ومما يدل على ذلك: ما ذهب إليه بعض الأئمة وهم الشافعية والمالكية من أن الرجل يقتل بالمرأة قصاصا لعموم قوله تعالى "وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون"[2] وعند ماطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو فى سن كسرت قال "كتاب الله القصاص"[3] وليس فى القرآن قصاص السن إلا ماحكى عن التوراة فى قوله تعالى "والسن بالسن" . .

فهذا الذى ذهب إليه العلماء، ومايرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد فى شرعنا ما يخالفه . . كما أن الجمل الثلاث فى قوله تعالى "ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون" "ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون" "ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون" قد جاء التعبير فيها بلفظ "من" - و "ومن" من صيغ العموم كما هو مقرر فى كتب اللغة، فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة، بل هو عام يعم كل من ولى الحكم بصفة خاصة، ومن لم يله بصفة عامة

لذا فمن طوعت له نفسه حاكما كان أو محكوما أن ينتهج منهجا غير منهج الله تعالى، أو يحكم بحكم لم يحكم به الله جاحدا بذلك حكم الله فهو داخل فى عداد

---

(١) سورة المائدة الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٧.
(٢) سورة المائدة آية ٤٥.
(٣) صحيح البخارى حـ٢ ص٩٦٢ باب الصلح فى الدية - طبعة دار القلم - بيروت طبعة أولى.

أولئك الذين ذكرهم الله تعالى فى الآيات الثلاث السابقة، ينطبق عليه كل لفظ من الألفاظ الثلاثة (الكفر والظلم والفسق) التى سجلها الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله، إذ لا يسمى الله الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ولا يكون كذلك، وظالما ولا يكون كذلك، وفاسقا ولا يكون كذلك - فلا تنافى بين أوصاف الكفر والظلم والفسق فى الآيات الثلاث، فجميعها صفات لموصوف واحد باعتبارات مختلفة: فالحكم بغير ما أنزل الله من حيث إنه جحود للشريعة يكون كفرا، ومن حيث إنه مجاوزة لحق الإنسان واعتداء على حق الله فى التشريع يكون ظلما، ومن حيث إنه خروج على شرع الله يكون فسقا . .

ذهب بعض العلماء إلى ان من جحد الحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأن من أقر به ولكنه لم يحكم به فهو مؤمن ولكنه ظالم وفاسق. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما: فى قوله تعالى "**ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون**" إلى آخر الآيات الثلاث. يقول: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق[1].

فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم بسبب احترائهم على الله وبعدهم عن منهج الله، وتعاميهم عن الحكم بما أنزل الله فى كتابه الكريم الذى قال الله فيه "**إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما**"[2].

والذى قال الله فيه ايضا "**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**"[3].

---

(١) *فتح القدير للشوكانى حـ٢ ص ٤٥.*
(٢) *سورة النساء آية ١٠٥.*
(٣) *سورة النساء آية ٦٥.*

ثانيا: التزام الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باحترامه وتعظيم شأنه وعدم رفع الصوت فى حضرته:

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رحمة الله الى خلقه، والمنقذ للبشرية جمعاء من ظلمات الشرك والجهل والضلال، والآخذ بيدها الى نور الإيمان والهدى والرشاد . . ومن أجل هذه المزايا وغيرها من الخصوصيات الكثيرة الأخرى استحق من أمته واستوجبت عليهم احتراما خاصا لشخصه. لم يوجبه هو صلى الله عليه وسلم بنفسه تواضعا منه وكرما، وانما أوجبه الله على امته من أجله . .

فقال سبحانه: **"يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون. إن الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم. ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثر هم لا يعقلون. ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم"**[1].

فبهذا الأدب السامى يؤدب الله تعالى عباده المؤمنين بأن يوقروا نبيهم الذى دعاهم الى الإيمان، فلا يرفعوا أصواتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم اذا نطق، ولا يبلغوا باصواتهم وراء الحد الذى يبلغه صوته عليه الصلاة والسلام (لأن فى رفعهم اصواتهم فوق صوته دليل على قلة الأحتشام وترك الأحترام. هذا فضلا عما قد ينتهى اليه أمرهم من حبوط أعمالهم وهم غير شاعرين ولا عالمين. .

كما أنه يجب عليهم اذا كلموه صلى الله عليه وسلم وهو صامت الا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، والا ينادونه باسمه مجردا كأن يقولوا يا محمد أو يا أحمد، بل يخاطبونه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم خشية أن يؤدى الى الاستخفاف بالمخاطب فيكفروا من حيث لا يشعرون. كما هجن سبحانه الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرا، لينبه الى

---

(١) سورة الحجرات الآيات ٢، ٣، ٤، ٥.

فظاعة ما جسروا عليه، وأن هذا النداء على هذه الصفة، مناف للأدب والتوقير اللائق بشخص النبى صلى الله عليه وسلم وحرمته، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، يكون صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى يبلغ من التفاحش مبلغا لا يقدر قدره

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع مع النبى صلى الله عليه وسلم فما كان أحد منهم يرفع صوته بعد ذلك فى مجلسه، ولا أن يناديه الا بأتم اجلال وأكمل احترام، وفى أنسب أوقاته صلى الله عليه وسلم روى أنه لما نزل قوله تعالى "**يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ..**" تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه اليه صلى الله عليه وسلم: فقال يارسول الله لقد أنزلت هذه الآية وانى رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملى قد حيط، فقال عليه الصلاة والسلام (لست هناك، أنك تعيش بخير وتموت بخير وانك فى أهل الجنة) فقال رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ارفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا، فأنزل الله "**إن الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم**".

واحترام النبى صلى الله عليه وسلم وخفض الصوت عنده واجب فى حياته وبعد مماته قال علماء هذه الأمة: انه يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره فى حياته عليه الصلاة والسلام احتراما له فى كل حال، ومن التزام الأدب مع النبى صلى الله عليه وسلم العمل بسنته والتمسك بكل ماجاء به والانصياع لأوامر الدين بالكلمة والسير تحت راية الاتباع وخلع كل ماعدا ذلك من ابواب الأبتداع.

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم - قد ارتفعت اصواتهما فجاء فقال أتدريان أين انتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف، فقال لو كنتما من اهل المدينة لأوجعتكما ضربا

وقد عرف المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص النبى صلى الله عليه وسلم الى كل استاذ وعالم لا يزعجونه حتى يخرج اليهم ولا يقتحمون عليه حتى دعوهم .. يحكى أن أبا عبيد العالم الزاهد الراوية الثقة: قال: ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج فى وقت خروجه ..

ثالثا: التثبت فى تلقى الأخبار، وعدم سماع كلام الفاسق حتى يظهر الأمر وتتضح الحقيقة:

لا شك أن التثبت فى تلقى الأخبار وعدم سماع كلام الفاسق حتى يظهر الأمر وتتضح الحقيقة أمر لا بد منه وأساس متين يقوم عليه بناء المجتمع المسلم السليم، اذ فى التثبت من الأخبار وعدم التعجل فى التصرف بناءا على خبر المفاسق، نجاة للمجتمع الأسلامى من الوقوع فى مواطن الزلل، والتردى فى مهاوى الردى، وبعد بالمسلمين عن القاء أنفسهم فى التهلكة، وعن تجرعهم كؤوس الندم فى وقت لا ينفع فيه الندم.

من أجل ذلك أمر الله عباده المؤمنين بأمر نافع لهم فى دينهم ودنياهم أنه اذا جاءهم المفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأى خبر فلا يصدقوه بادئ ذى بدء حتى يتثبتوا ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله، لأن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هو من فصيلته - وذلك كراهة أن يصيبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم، فيندموا على ما فرط منهم ويتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع، ومن أجل ذلك جاء النداء من الله لجماعة المؤمنين يبين لهم كيف يتلقون الأخبار وكيف يتصرفون فيها، كما يقرر ضرورة التثبت من مصدرها. قال تعالى: "**يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**"[1].

---

(١) سورة الحجرات آية ٦.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط - حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بنى المصطلق- يقول ابن كثير وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الأمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق وهو الحارث ابن أبى ضرار. والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها قال الأمام أحمد حدثنا محمد بن سابق حدثنا عيسى بن دينار حدثنى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى رضى الله عنه يقول: قدمت علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعانى الى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى الى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول الله أرجع اليهم فأدعوهم الى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لى دفعت زكاته، وترسل الى يارسول الله رسولا ابان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع للحارث ممن استجاب له وبلغ الأبان الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن يبعث عليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بروات قومه فقال لهم: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لى وقتا يرسل الى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الخلف، ولا أرى حبس رسول الله الا من سخطة فانطلقوا بنا نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أى خاف فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال يارسول الله ان الحارث قد منعنى الزكاة واراد قتلى. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث البعث الى الحارث رضى الله عنه، وأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم الى من بعثتم؟ قالوا اليك - قال: ولم؟ قالوا: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال رضي الله عنه لا والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى - فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟ قال: لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت الا حين احتبس على رسول الله صلى الله عليه

وسلم، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى وسوله. قال: فنزلت الحجرات "يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..الى قوله تعالي "حكيم"[1].

هذا هو سبب النزول الذى نزلت عليه الآية الكريمة لكن بقى علينا أن نقف على حقيقة ينبغى ألا تغيب أبدا عن خواطرنا - هذه الحقيقة هى: أن الصحابة رضى الله عنهم كلهم عدول شهد بعدالتهم القرآن الكريم فى أكثر من موضع، كما شهد بعدالتهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى أكثر من حديث - وإن ماحدث من بعضهم من بعض المخالفات اليسيرة لا يسلبهم هذه العدالة ولا يخرم مروأتهم لأنهم لم يصروا على المخالفة ولم يجاهروا بها حتى يحكم عليهم بالفسق القادح فى العدالة - لأن الفسق القادح فى العدالة هو فسق المجاهر المصر على فسقة والذى لم يتب عنه قال تعالى "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فإن الله غفور رحيم"[2].

لذلك فإن كانت حادثة الوليد بن عقبة سببا فى نزول الآية الكريمة "يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..." فإنها مجرد سبب لحكم عام لا يقدح فى عدالة الوليد الذى هو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى يدل سبب النزول على مدى منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان رسولا له الى بنى المصطلق ليأتيه بزكاتهم، كما أن الوليد لما نزلت الآية شعر بالذنب وتاب وحسنت توبته ... قال الإمام الفخر الرازى: ماذكره المفسرون من أنها أى الآية نزلت بسبب الوليد بن عقبة حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم إلى آخره - إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت فى خبر الفاسق، وأنها نزلت فى ذلك الحين الذى وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف، لأن الوليد لم يتقصد الإساءة اليهم -

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ٤ ص ٨ ٢، ٩ ٢

(٢) سورة النور آية ٤، ٥

ورواية الإمام أحمد تدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث وقد خرجت فى انتظاره فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما أخبر به ظنا منه أنهم خرجوا لقتاله - ثم يقول الفخر الرازى: ويدل على على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا أن الله تعالى لم يقل إنى أنزلتها لكذا، والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب - غاية مافى الباب أنها نزلت فى ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية، فيتأكد ماذكرنا أن إطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شئ بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى "**إن الله لا يهدى القوم الفاسقين**" وقوله تعالى "**ففسق عن امر ربه**" وقوله تعالى "**واما الذين فسقوا فمأواهم النار**" إلى غير ذلك[1].

هذا وإن التنكير فى كلمة (فاسق) الواردة فى الآية هو للتعميم لأن (فاسق) نكرة فى سياق الشرط، وهى كالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم كما قرره علماء الأصول - والمعنى للآية الكريمة: إن جاإكم أى فاسق بخبر فتثبتوا من خبره.

وقال الشيخ الألوسى عند تفسيره للآية الكريمة: وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التى تفيد التحقيق ليشير الى أن وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل الندرة إذ الأصل فى المؤمن ان يكون صادقا، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمنزلة التى لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وماكان يقع مثل مافرط من الوليد ابن عقبة إلا فى الندرة قيل (إن جاءكم، بحرف الشك..[2].

هذا ولقد ذهب جمهور العماء سلفا وخلفا إلى أن الصحابة رضى الله عنهم كلهم عدول ببركة صحبة النبى صلى الله عليه وسلم، ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم فى كتابة العزيز كقوله تعالى "**وكذلك جعلناكم امة وسطا**" أى عدولا. وقوله سبحانه "**كنتم**

---

(١) *التفسير الكبير للفخر الرازى جـ٧ ص ٥٨٩.*

(٢) *روح المعانى للألوسى بتصرف جـ ٢٦ ص ١٤٥.*

خير امة اخرجت للناس" وقوله تعالى **"محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم"**، وقوله سبحانه **"يتبغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون"**، وقوله جل وعلا **"رضى الله عنهم ورضوا عنه"** إلى آخر ما هناك من الايات الكثيرة التى تبين صدقهم وفضلهم وعدالتهم.

وكذلك ما ثبت فى السنة المطهرة من مدحهم والثناء عليهم وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التى تشير الى فضيلتهم بإختصار:

(أ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) الحديث[1].

(ب) وقال صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أن احدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)[2].

(جـ) وقال صلى الله عليه وسلم (الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى ابغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد أذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)[3].

فهذه الأخبار التى وردت فى الكتاب والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة وأفضليتهم على سائر الناس، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق لأنهم لا يصرون على الذنب، وإذا تاب الإنسان رجعت اليه عدالته ولا يحكم بفسقه على التأبيد، فهذا (ماعز الأسلمى) الذى ارتكب الفاحشة

---

(١) صحيح البخارى حـ٣ ص ١٣٣٥ - باب فضائل اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم.

(٢) صحيح البخارى حـ٣ ص ١٣٤٣ - باب فضائل اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم.

(٣) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى حـ ١ ص ٣٦٥- قال الترمذى هذا حديث حسن غريب.

يقول عنه النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر برجمه (لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم)[1] والقول بأن بعض الصحابة قد وقع فى الذنب والمخالفة - بناء على الأعتقاد بعدم عصمتهم: لا يعنى انهم غير عدول، لأن الفاسق الذى ترد شهادته وروايته هو الذى يصر على الذنب والمعصية وليس فى الصحابة رضى الله عنهم من يصر على ذلك.

رابعا: القضاء على النزاع الداخلى بين المسلمين:

هذا هو الأساس الرابع من الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع المسلم - وهو القضاء على النزاع الداخلى بين المسلمين بالطرق التى تكفل تماسك المجتمع المسلم وترأب الصدع بين الإخوه المؤمنين.

قال تعالى **"وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ الى امر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون"**[2].

نعم: قد تثار الفتن بين المسلمين وقد يحدث بغى من جماعة من جماعات المؤمنين على جماعة أخرى منهم، وقد يخرج شخص بطائفة من المؤمنين على امام المؤمنين صاحب البيعة العامة فعند ذلك يتعين على المؤمنين من غير المتقاتلين أن يسعوا بالصلح بين المتقاتلين ويدعوهم الى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدى من أحدى الطائفتين المتقاتلتين على الاخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع الى امر الله وحكمه فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعو ة الى كتاب الله وحكمه فعلى المسلمين

---

(١) *هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى قصة ما عزبن مالك الأسلمى حـ٣ ص ١٣٢٢*

(٢) *سورة الحجرات آية ٩ ١*

أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدى ما يجب عليها للأخرى.

وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى "**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..**". عدة روايات وكلها تدل على أن قتالا نشب بين طائفتين من المؤمنين فنزل النص الكريم ليرسم للمسلمين الطريق السوى للقضاء على مثل تلك النزاعات التى قد تحدث بين جماعة المؤمنين ومن تلك الروايات فى سبب النزول ما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه قال: قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: لو أتيت عبد الله بن أبى، فأنطلق اليه - رسول الله صلى الله عليه وسلم - وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة، فلما انطلق اليه قال ابن أبى - اليك عنى فو الله لقد آذانى ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله بن أبى رجال من قومه . . فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال - فنزلت فيهم "**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..**" الآية - وقد روى نحو هذا من وجوه آخر[1].

وعلى أية حال فالعبرة دائما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . . يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب: وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات، أم كان تشريعا لتلافى مثل هذه الحالة فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح، والإرتكان فى هذا كله الى تقوى الله ورجاء رحمته باقرار العدل والصلاح - ثم يقول: ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك الا يجهز على جريح فى معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير، والا يتعقب مدبر ترك المعركة وألقى السلاح، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم وانما هو ردهم الى الصف، وضمهم الى لواء الأمة الإسلامية. [2]

---

(١) *فتح القدير للشوكانى جـ٥ ص ٤٥ والدار المنثور جـ٦ ص ٩*

(٢) *فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب جـ٦ ص ٣٤٣*

وهكذا نرى كيف يوضح لنا القرآن الكريم الطريقة العملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، وذلك باصلاح ذات البين بين المتقاتلين حتى تضع الحرب أوزارها ويرجع الباغى عن بغيه، وهذا أمر تفرضه الأخوة الإيمانية ويقتضيه الإيمان الذى صهر المؤمنين فى بوتقة واحدة وجعلهم كالجسد الواحد "**اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**" قال تعالى "**إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**"(١).

وقد حث سبحانه على إصلاح ذات البين، والسعى لفض التنازع بين جماعة المسلمين، وجعل ذلك دليلا على إيمان المؤمن وسببا لفوزه بالأجر العظيم من الله تعالى فقال سبحانه "**فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**"(٢).

وقال تعالى "**لا خير فى كثير من نجواهم إلا من امر بصدقة او معروف او إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما**"(٣).

والحق إذا تقاعس المؤمنون عن نصرة الطائفة المظلومة ولم يضربوا على أيدى الطائفة الظالمة ويردوها الى الحق لاضطربت الأمور ولفسدت أحوال الأمة - ورحم الله الشيخ الشوكانى إذ قال بعد تفسير قوله تعالى "**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ الى امر الله..**" قال: وفى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين - وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم (قتال المسلم كفر)(٤) فإن المراد بهذا الحديث وماورد فى معناه قتال

---

(١) *سورة الحجرات اية ١٠.*
(٢) *سورة الانفال اية ١.*
(٣) *سورة النساء اية ١١٤.*
(٤) *هذا جزء من حديث اخرجه البخارى فى صحيحة بلفظ قال صلى الله عليه وسلم (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) صحيح البخارى حـ١ ص ٢٧ - كتاب الإيمان - باب خوف المؤمن من ان يحبط عمله وهو لا يشعر.*

المسلم الذى لم يبغ قال ابن جرير: لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حق، ولا أبطل باطل، ولو جد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ماحرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم (خذوا على أيدى سفهائكم)[1] أقول : ومخالف أيضا لقول النبى صلى الله عليه وسلم (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) قالوا يارسول الله هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال (تأخذ فوق يديه)[2].

وبهذا تتضح إيجابية الإسلام فى تشريعاته حيث يقف بكل حزم فى وجه العبث ويأخذ على أيدى العابثين الساعين فى تقويض وحدة المجتمع المسلم وهدم بنيانه، والعاملين علي قطع أواصر الود والمحبة التى تثمرها أخوة الإيمان وينميها جلال العقيدة الإسلامية التى توجب على الجماعة المسلمة ألا تكون السلبية لها مكان بينهم أبدا - فإذا حدث نزاع أو شقاق بين طائفتين من المؤمنين فإنه يجب فض هذا النزاع بكل الوسائل الممكنة حتى ولو أدى الأمر الى التدخل بالقوة حتى يسود الأمن والسلام بين المؤمنين، وتسود الأخوة التى هى علامة مميزة للجماعة الإسلامية.

هذا ونحب أن ننوه هنا أن قتال الفئة الباغية ليس أمرا مشاعا مباحا لكل مسلم، وإنما هو حق الإمام أو نائبة فقط، حتى لا يقع المجتمع الإسلامى فى فوضى ويختل نظامه..

أما الإصلاح بين الطائفتين المتحاربتين فإن بابه مفتوح لكل من وجد نفسه أهلا لذلك، وشعر بالكفاءة والمقدرة على فض النزاع بين الطائفتين سليما وبغير مشاحنة.. كما نحب أن ننوه هنا الى هذا النداء الإلهى لهؤلاء الدين يحاولون فض النزاع بين المتخاصمين، وأيضا لكل من أصبح حكما بين الناس عليه أن يعلم أنه مسئول عن

---

(١) *فتح القدير للإمام الشوكانى حـ٥ ص ٦٣.*

(٢) *صحيح البخارى حـ٢ ص ٨٦٣ باب (اعن اخاك ظالما أو مظلوما).*

حكمه أمام الله تعالى، وعليه أن يعلم أن الله قد أوجب عليه العدل فى الحكم فلا يجوز له ان يحابى فريقا على حساب الآخر لأى سبب من الأسباب، وليستحضر دائما قول الله تعالى "**يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين إن يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وإن تلوُوا او تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**"[1].

فهذا النداء الإلهى أمر من الله تعالى لعباده بالثبات والدوام على قول الحق والشهادة بالصدق تقربا إليه تعالى وطلبا لمرضاته، حتى ولو كانت هذه الشهادة على النفس أو الوالدين والأقربين . . والأوامر الإلهية بإيجاب الحكم بالعدل بين الناس كثيرة فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى "**إن الله يأمركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا**"[2].

ويقول سبحانه "**يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا إعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**"[3] ويقول عز من قائل "**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**"[4].

خامسا: حسن المعاشرة مع الآخرين واحترام مشاعرهم:

إن من حقوق الأخوة التى أوجبها الله تعالى على المسلمين نحو بعضهم البعض احترام المسلم لأخيه المسلم وتقدير مشاعره، وانما يتحقق هذا بعدم السخرية منه،

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥.
(٢) سورة النساء آية ٥٨.
(٣) سورة المائدة آية ٨.
(٤) سورة النحل آية ٩٠.

وبالابتعاد عن المعايب والمطاعن وعن التنابز بالالقاب التى يسوء الشخص سماعها وأن يدعى بها، فيها سخرية وعيبا وقد قرر الحق تبارك وتعالى هذا فقال "**يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسي ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون**" وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات أشهرها ما ذكره الشوكانى فى تفسيره فقال أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله تعالى "**يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم..**" قال نزلت فى قوم من بنى تميم استهزأوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيره وسالم مولى أبى حذيفة..)[1] وأياما كان من نزلت فيه الآية الكريمة فانها دعوة صريحة لعموم المؤمنين بأن يرعى بعضهم حقوق بعض ونهى صريح أيضا لعموم المؤمنين عن أن يهزأ بعضهم من بعض أو أن يعيب بعضهم بعضا أو أن يدعو بعضهم بعضا باسم يرى فى صاحبه سخرية عيبا لأن من مقتضيات الإيمان ومن حقوق الأخوة أن يحترم المؤمن مشاعر أخيه المؤمن فلا يهزأ به ولا يحقره، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة المسلم وحرمة مشاعره وحرمة كرامته وانسانيته فلا يهان ولا يذل ولا يحقر ولا يخذل، بل وأكد حرمة دمه وماله وعرضه فقال صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)[2] وأخرج الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله على وسلم (المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ها هنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[3].

---

(١) *فتح القدير للشوكانى جـ٥ ص ٦٦.*

(٢) *اخرجه البخارى حـ٢ ص ٨٦٢ باب (لا يظلم المسلم المسلم).*

(٣) *تحفة الأحوذى أبواب البر، باب ماجاء فى شفقة المسلم على المسلم المجلد السادس ص ٥٤ واخرجه مسلم فى صحيحه حـ٤ ص ١٩٨٦.*

وعلام يسخر الناس بعضهم من بعض؟ أليس الكل من ماء مهين؟ أليس الكل من التراب والى التراب يعود؟ أليس الكل من طين ومن حمأ مسنون، أليس الكل من ذكر وأنثى، فعلام السخرية أذن؟ ولله در الشاعر اذ يقول:

يامدعى الكبر اعجابا بصورته .·. هلا نظرت فإن النتن تشويب
لو ينظر الناس ماذا فى بطونهم .·. ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب وماكول التراب غدا .·. اقصر فانك ماكول ومشروب

ورحم الله الشيخ سيد قطب اذ قال: ان المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس، وهى من كرامة المجموع، ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس لأن الجماعة كلها وحدة كرامتها واحدة، والقرآن فى هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب "يا ايها الذين آمنوا" وينهاهم أن يسخر قوم بقوم أى رجال برجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن فى ميزان الله..[1].

هذا ويستثنى العلماء من السخرية والعيب من غلب عليه الأستعمال ولا يحس بغضاضة مع اطلاق اللقب السئ عليه كأن يصبح اللقب علما عليه ولا يستاء به . . قال القرطبى: أنه يستثنى من هذا من غلب عليه الأستحمال كلأعرج والأحب، ولم يكن له فيه كسب يجد فى نفسه منه عليه، فجوزته الأمة، واتفق على قوله أهل الملة[2].

---

(١) فى ظلال القرآن لأستاذ سيد قطب جـ٦ ص ٣٣٤٤.

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٢٩ - وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة المسلم وعظم شأنه فى حديث آخر يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة المشرفة ويقول (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفسى محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا، أخرجه ابن ماجه فى سننة.

سادسا: البعد كل البعد عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة، وعن الغيبة والنميمة:

هذا وتسير بنا السورة الكريمة على نفس النسق السابق نحو الهدف المنشود وتحقيق المجتمع الفاضل الذى يسوده الحب وترفرف عليه رايات الطهر والفضيلة، فتذكر لنا أدبا يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتأدب به ويلتزمه منهجا وسلوكا، مراعاة لحرمة أخيه وصيانة لكرامته.

يقول الله تعالى "**يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم**". . والناظر فى الآية الكريمة يرى أنها تهتف بالمؤمنين من أعماقهم ان يبتعدوا عن التهمة التى لا سبب لها، وعن التخوين وإساءة الظن بالأهل والناس، لأن فى بعض الظن أثما وذنبا يستحق صاحبه العقوبة عليه، فضلا عن كونه يفصم عرى المودة والمحبة بين الأخوة المسلمين، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سوء الظن بالناس فقال عليه الصلاة والسلام (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)[1] كما تهتف الآية بالمؤمنين أن يبتعدوا عن البحث والتفتيش عما انكتم من عيوب المسلمين وعوراتهم قال تعالى "**ولا تجسسوا**" اى يامعشر المؤمنين خذوا ماظهر من أحوال الناس ولا تتبعوا عوراتهم، فلا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله تعالى . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجسس وعن تتبع عورات المسلمين فى أكثر من حديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته)[2] كما تهتف الآية أيضا بالمؤمنين أن لا يذكر بعضهم بعضا بالسوء فى غيبته بما يكرهه بل، وتجعل الآية الكريمة من يتناول أخاه المسلم بالسوء فى غيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتا، فى الشناعة والقبح، وهذا مما

---

(١) صحيح البخارى جـ٥ ص ٢٧٠ - باب (ياأيهاالذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن).

(٢) سنن ابى داود جـ٤ ص ٢٧٠ - كتاب الأدب - باب فى الغيبة.

يدعو الأنسان أن ينأى بنفسه عن هذه الجريمة النكراء، وأن يمسك لسانه عن الخوض فى أعراض الناس، لأن عرض الإنسان كلحمه وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الأستطالة فى عرضه. يقول الأمام أبو السعود فى تفسيره: والآية تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب فى غاية الشناعة من حيث صدوره عنه، ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا، وشرعا..[1] هذا وفى قوله تعالى "**ولا يغتب بعضكم بعضا**" اشارة الى ان الغيبة المنهى عنها هى غيبة المؤمن، وأما الكافر فلا غيبة له لأن الله تعالى قال "**ولا يغتب بعضكم بعضا**"، ولم يقل: ولا تغتابوا .. أى لا يغتب بعضكم يا معشر المؤمنين بعضا .. كما أن المقصود بقوله تعالى "**بعضكم بعضا**" العموم. فإن النهى عن الغيبة نهى عام لجميع المؤمنين.

وهكذا نرى الله عز وجل قد نهي عن الغيبة وهى: أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان، وقد ثبت معنى ذلك فى صحيح مسلم: فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "**اتدرون ما الغيبة**" قالوا الله ورسوله أعلم قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول - فقال: أن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وان لم يكن فيه فقد بهته[2] وسئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن الغيبة فقال:

الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى - الغيبة والأفك والبهتان - فإما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ماهو فيه. (أما الأفك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه)وأما البهتان فهو أن تقول فيه ماليس فيه .. وأما عن حكم الغيبة: فمن المحقق أنه لا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر - وأن على من اغتاب أحدا التوبة الى الله تعالى - وأما عن كفارة الغيبة **ففيها ثلاثة أقوال:**

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٨ ص ١٢٢.

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه حـ٤ ص ٢٠٠١.

فقال فريق من العلماء: ليس على المغتاب أن يتحلل من غيبته ممن اغتابه وانما هى خطيئة بينه وبين ربه، واحتج هذا الفريق بأنه لم يأخذ من ماليه ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس ذلك مظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ماتكون فى المال والبدن .. وقال فريق آخر: هى مظلمة وكفارتها الأستغفار لصاحبها الذى اغتابه واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن يتسغفر لمن اغتبته .. وقال فريق ثالث: هى مظلمة وعلى المغتاب الاستحلال منها واحتج هذا الفريق بقول النبى صلى الله عليه وسلم (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شئ فليتخلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه[1].

ومن المقرر شرعا أن الغيبة المحرمة انما تكون فى الشخص الذى يستر نفسه يعنى مستور الحال. أما الفاسق المعلن بالفسوق المجاهر به فليست الغيبة محرمة فيه .. يعنى اغتيابه ليس من قبيل الغيبة المحرمة شرعا لأنه هتك الستر مع الله تعالى.

يقول العلامة الجمل فى تفسيره: وليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المتجاهر فإن فى الخبر: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) .. فالغيبة اذن فى المرء الذى يستر نفسه[2].

قال القرطبى: وروى عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليس لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر[3].

---

(١) *اخرجه البخارى من حديث أبى هريرة جـ٢ ص ٨٦٥ باب من كانت له مظلمة عند الرجل.*

(٢) *الفتوحات الالهية (حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ١٨٤ .*

(٣) *تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٣٩ .*

خلاصة الأمر:

أن الغيبة محرمة الا فى أمور استثناها العلماء لمصلحة عامة تمس حياة المسلمين كالنصيحة وذلك ماثبت فى صحيح مسلم أن فاطمة بنت قيس لما استنصحت الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما خطبها معاوية وأبو الجهم قال لها ناصحا (أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه)[1]. وكذلك ما أخرجه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أستأذن عليه رجل فاجر قال (أئذنوا له بئس اخو العشيرة)[2] وتباح الغيبة أيضا فى سرد المظالم أمام القضاء، وكذلك الشكاة والفتوى، ومايذكر فى كتب الحديث من الجرح والعديل، وكنصح الناس وتحذيرهم من الفساق الذين ظهر فسقهم واشتهر من جهرهم به . . يقول ابن كثير مشيرا الى تحريم الغيبة وما استثناه العلماء منها: الغيبة محرمة بالإجماع ولا يستثنى من ذلك الا ما رجحت مصلحته كالجرح والتعديل وكذا ما جرى مجرى ذلك ثم بقيتها على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد. .[3].

ويشير القرطبى أيضا الى اتفاق العلماء على أن الغيبة كبيرة من الكبائر فيقول: ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر وأن من اغتاب أحدا فعليه أن يتوب الى الله عز وجل[4].

ويذكر الأمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم الأمور التى تباح فيها الغيبة فيقول: تباح الغيبة لغرض شرعى وذلك لستة أسباب:

اولا : التظلم.

---

(١) صحيح مسلم جـ٤ كتاب الطلاق ص ١٩٥ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٨ ص ١٥، ١٦ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٣٧ - مطبعة دار الكتب المصرية - طبعة أولى.

ثانيـــا: الأستعانة على تغيير المنكر.

ثالثـــا: الأستفتاء والشكاية.

رابعـــا: تحذير المسلمين من الشر.

خامسا: أن يكون الفاسق مجاهرا بفسقه أو ببدعته فيجوز ذكره بما يجاهر به.

سادسا: التعريف مثل ذكر الألقاب التى لا يعرف المرء الا بها[1]

سابعـا: **<u>الإقرار التام بأن الناس جميعا يرجعون الى أصل واحد وأنهم سواسى كأسنان المشط وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى:</u>**

يقول الله تعالى "**يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير**" {آية ١٣} ، لقد تقدم الكلام على النداء من قبل الا أنه تغير المنادى فى هذا الموضع عن المواضع السابقة، فالمنادى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد شرحها هم الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم أما فى المواضع السابقة فالمنادى هم المؤمنون خاصة والسر فى ذلك أن ما وقع بعد النداء فى المواضع السابقة أمور تتعلق بالمؤمنين خاصة - أما فى هذا الموضع فإن ما وقع بعد النداء أمور تتعلق بكل الناس وهو انتماؤهم الى أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء عليهما السلام من الله تعالى، وهذا الأنتماء أمر عام يشترك فيه المؤمنون وغير المؤمنين، ومن ثم كان المنادى فى الآية الكريمة عامة للناس.

ومما لا شك فيه أن هذا النداء الموجه الى البشرية كلها يذكرها بوحدة أصلها ومنشئها، وأنهم جميعا ينتمون الى ذكر وأنثى الى أب واحد وزم واحدة "**يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثي**". وصيرهم الله تعالى بعد ذلك شعوبا وقبائل ليتعارف بعضهم الى بعض بالإيمان والمحبة

---

(١) *صحيح مسلم بشرح النووى جـ٥ ص ٤٤٩، ٤٥٠.*

فيتعمق فى نفوسهم تبعا لذلك معنى الأخاء "**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**"، ويختم رب العزة سبحانه الآية الكريمة بما يبين المعيار الدقيق الذى على اساسه يكون التمايز والتفاضل بين الناس الذين وجه اليهم النداء بوحدة الأنتماء والنشأة . . فقال تعالى "**إن اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير**" فا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى والأعمال الصالحة، ولا تمايز بين الناس ولا تفاضل فى الدينا والآخرة الا بذلك. فقد أخرج البخارى وغيره عن أبى هريزة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم؟. قال (أكرمهم عند الله اتقاهم). قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله) قالوا ليس عن هذا نسألك - قال (فعن معادن العرب تسألونى؟) قالوا نعم قال (خياركم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام) اذا فقهو)[1]. وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره تبين أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد، وأن الإسلام لا يعرف العنصرية أو القومية ولا يقر مبدأ المفاضلة بين الناس على أساس من الجنس أو اللون أو الوضع الأجتماعى وأمثال ذلك ما أخرجه الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (والناس بنوا آدم وخلق الله آدم من التراب)[2].

والآية الكريمة قيل انها نزلت فى أبى هند فقد أخرج أبو داود فى مراسيله وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياظة أن يزوجوا أبا هند أمرأة منهم، فقالوا يارسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية "**يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ..**" الآية. وقيل انها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له ابن فلاتة. فقال النبى صلى

---

(١) *فتح القدير للشوكانى جـ٥ ص ٦٩.*

(٢) *اخرجه الترمذى جـ٥ ص ٦٥ - تفسير سورة الحجرات.*

الله عليه وسلم (من الذاكر فلانة؟) قال ثابت أنا يارسول الله فقال النبى صلى الله على وسلم (أنظر فى وجوه القوم) فنظر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (ما رأيت؟) قال: ثابت: رأيت أبيض وأسود وأحمر فقال صلى الله عليه وسلم (انك لا تفضلهم الا بالتقوى). فنزلت فى ثابت هذه الآية ونزل فى الرجل الذى لم يفسح له **"يا ايها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا"**.

وقيل انها نزلت فيمن عابوا بلالا رضى الله عنه: قال ابن عباس لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم، وقال الحرث بن هشام ماوجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا، وقال سهل بن عمرو أن يرد الله شيئا يغيره، قال أبو سفيان أنا لا أقول شيئا أخاف أن يخبره به رب السموات، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم واخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله هذه الآية **"يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى.."** زجرا لهم عن التفاخر بالانساب والتكاثر بالأموال والأزدراء بالفقراء، وأن للمدار على التقوى لأن الجميع من أدم وحواء وانما الفضل بالتقوى[1].

وعلى ايه حال فالعبرة دائما بعموم اللفظ النازل بالحكم لا بخصوص السبب .. وعلى المؤمنين بخاصة والناس بعامة أن يعرفوا ذلك وأن يلتزموه وأن يعلموا (أنه لا نسب كالتقوى ولا حسب كالأسلام ولا شرف كالعلم).

---

(١) *حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ١٨٥ نقلا عن القرطبى.*

والشعوب فى قوله تعالى "**وجعلناكم شعوبا وقبائل**" جمع شعب بفتح الشين: وهو الحى العظيم، والقبائل: جمع قبيلة. وهى أقل من الشعب. وسمى الحى العظيم من الناس شعبا لتشعبهم واجتماعهم كشعب اغصان الشجر.

وقال الشيخ الجمل فى حاشيته: وعبارة الخطيب: وطبقات النسب سبع: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة بوزن قبيلة والعشيرة وكل واحدة تدخل فيما قبلها فالقبائل تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والأفخاذ تحت البطون والفصائل تحت الأفخاذ والعشائر تحت الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وعبد مناف فخذ وبنو هاشم فصيلة والعباس عشيرة، وليس بعد العشيرة حى يوصف. وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه. .[1]. ومعنى الآية الكريمة : أى يا أيها الناس جميعا نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالأباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسمب كلكم لآدم وآدم من تراب، وجعلناكم شعوبا شتى وقبائل متعددة ليحصل بينكم التعارف والتألف لا التناحر والتخالف، أو ليعرف الأنسان نسبه فينتسب كل واحد منكم الى نسبه ولا يعتزى الى غيره، فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا. أن أفضلكم عند الله تعالى أتقاكم لله وأخشاكم له، فمن أراد شرفا فى الدنيا ومنزلة عظيمة فى الآخرة فليتق الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله) إن الله عليم بالعباد مطلع على ظواهرهم وبواطنهم يعلم التقى والشقى والصالح والطالح (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)[2] والله تعالى أعلم.

---

(١) *حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ١٨٥.*

(٢) *سورة النجم آية ٣٢.*

ثامنا : نبذ النفاق بكل صوره واشكاله خاصة فى مجال العقيدة والأعتراف الكامل بأن الفضل لله وحده:

هذا هو الأدب الثامن من جملة الآداب التى اشتملت عليها سورة الحجرات والتى دعت المسلمين جميعا الى التأدب بها والأنصياع لها لما فيها من الخير العميم للأمة بأسرها، ولما يترتب عليها من تكوين المجتمع الفاضل الذى تنشده الأمة وترجوه.

وان صلة هذا الأدب بما تقدمه من آداب صلة وثيقة، فبعد أن يبين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه حبب الإيمان الى أهله وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان، ولما قرر الله تعالى مبدأ الأخاء ودعائمه، وأتبع ذلك بيان انتماء الأنسانية جميعا الى أصل واحد وأن أساس التفاضل بينهم هو التقوى التى هى غاية للإيمان، وأساس تكريم المرء، لما بين الله تعالى كل ذلك بين أن الأيمان الذى سبق الحديث عنه انما هو تصديق بالقلب يتبعه ما يبرهن ويدل عليه من الأقوال والأفعال كالجهاد بالمال والنفس، وكل مايؤدى الى تحقيق ذلك التصديق وأن من أتى بخلاف ذلك فهو المنافق الكاذب قال تعالى **"قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون. قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات ومافى الأرض والله بكل شئ عليم . يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين. ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون"**. . قال المفسرون : نزلت فى نفر من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، ويريدون الصدقة ويمنون على الرسول صلى الله عليه وسلم . . وعلى هذا القول للمفسرين فى سبب

الآيات هم الذين فاقوا من بنى أسد فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وقد ذهب الأمام البخارى رحمه الله تعالى الى هذا القول . . وقد ذهب ابن كثير رحمه الله تعالى الى أن الآيات نزلت فى قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا اليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقين فى براءة، وانما قيل لهؤلاء تأديبا **"قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم"** أى لم تصلوا الى حقيقة الأيمان بعد. .[1].

والذى يوحى به النص الكريم أن أولئك النفر من الأعراب أظهروا الإسلام تقية ورغبة فى الحصول على الصدقة، وبذلك يكونون قد نافقوا . . يقول الأمام الشوكانى فى تفسيره: ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان، ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال "قالت الأعراب آمنا وهم بنو أسد أظهروا الاسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال **"قل لم تؤمنوا"** أى لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن أعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة **"ولكن قولوا اسلمنا"** أى استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة، وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم ولهذا قال سبحانه **"ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم"** أى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولانية خالصة. .[2] هذا ويجدر بنا ونحن في مقام الحديث عن نفر من الأعراب أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر، أن نذكر. كلمة عن النفاق تبين فيها حقيقته وأقسامه وبعض صفات المنافقين فنقول: ان من

---

(١) *انظر تفسير ابن كثير - سورة الحجرات جـ٧ ص ٣١٧.*

(٢) *فتح القدير للشوكانى جـ٥ ص ٦٧. ٦٨.*

الأمور التى تشين الأنسان وتنزله من قمة الإيمان الى حضيض الكفر (النفاق) وما أصيب أحد بشئ منه الا مقته الله ورسوله والناس أجمعون، لما لذلك الخلق من مضار ومضاعفات شخصية واجتماعية، وقد ظهر هذا الخلق المرذول أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجدت بين صفوف المسلمين طائفة أظهرت خلاف ما تبطن.

فليست ثوب الايمان فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين "**واذا خلوا الى شياطنهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون**"[1] مما الحق بالمسلمين الخلص أشد الويلات وأعظم البليات لولا أن الله سلم . . ومواقف المنافقين فى الغزوات أكبر شاهد على ذلك حيث تقاعسوا عن الجهاد وخذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أشد المواقف وإن غزوة أحد من الغزوات التى تدل بجلاء على سوء فعال المنافقين وخبثهم ولؤمهم وقد أنزل الله فى ذلك قرآنا يفصحهم . .

واما عن حقيقة النفاق:

فقد ذكر العلماء له تعريفين : تعريفا يبين حقيقة النفاق فى اللغة، وآخر يبين حقيقته فى الأصطلاح.

تعريف النفاق لغة:

فقد قال علماء اللغة ان النفاق كلمة مشتقة من النافقاء وهو حجر اليربوع، واليربوع حيوان فى البرية له حجران أحدهما يقال له النافقاء، والثانى يقال له القاصعاء - ويفعل اليربوع ذلك لأظهار غير الحقيقة دفاعا عن حياته، فهو يخترف الأرض حتى اذا كان يبلغ ظاهرها أرق التراب، فاذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه وخرج فظاهر جحره تراب وباطنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره ايمان وباطنه كفر . .[2]

أذن فالنفاق لغة: اظهار خلاف ما يبطن.

---

(١) *سورة البقرة اية ١٤ .*
(٢) *لسان العرب جـ١٢ ص ٢٣٦ .*

وتعريف النفاق فى الاصطلاح:

هو اظهار الأسلام وابطان الكفر - والعياذ بالله تعالى.

واما عن اقسام النفاق:

فأنه ينقسم الى قسمين:

١- **نفاق العقيدة:** وهو أن يظهر الأسلام ويخفى الكفر، أى يدعى الأسلام بلسانه فقط، وينكره بقلبه وهو أشد أنواع الكفر.

٢- **نفاق العمل:** ويسمى النفاق الأجتماعى: وهو أن يخالف عمله قوله. ولو نظرنا الي قسمى النفاق لوجدنا أن نفاق العقيدة كفر صريح، وأن أصحاب هذا القسم من الناس هم كفار بل أشد من الكفار عذابا يوم القيامة، ويصدق فيهم قول الله تعالى "**ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**"[١] وهم المعنيون بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم "**ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون**"[٢] فهؤلاء الناس ليسوا أهلا للمعاملة الأسلامية ولا يجب لهم ما يجب للمسلمين، بل أنهم اصبحوا على النقيض من المسلم، فإذا أرادوا أن يدخلوا حظيرة الأسلام ويعودوا الى ربهم فالدواء الناجع والعلاج النافع يتمثل فى التوبة الى الله تعالى واصلاح النفس، والأعتصام بحبل الله والأخلاص لدين الله قال تعالى "**الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجرا عظيما**"[٣] .. **واما نفاق العمل:** فهو أن يكون العبد مقرا بلسانه وقلبه ولكنه يأتى بما ليس من أخلاق المؤمنين كأن يكذب فى

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥.

(٢) سورة التوراة آية ٨٤.

(٣) سورة النساء آية ١٤٦.

الحديث، أو لا يفى بالوعد،أو يخون فى الأمانة وهذا الصنف من الناس هم المعنيون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، واذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان)[1]، فهذه الأمور وغيرها من الأشياء التى لا تليق بمؤمن فهى وان كانت من امارات نفاق العقيدة لكنها ليست متأصلة فى نفاق العمل اذ سرعان ما يفيق المؤمن من غفوته ويشرق نور الأيمان فى قلبه فيعود سريعا الي حظيرة ربه والعمل بأوامر الدين الحنيف ، ولا شك ان كل صفات النفاق مرذولة ويجب على كل مسلم أن يتجنبها لأنها من الآفات التى تقضى على سعادة الأفراد والأمم، وعلى المؤمنين أن يطهروا المجتمع منها، وأن يلتزموا بما يزين المؤمن من الصدق والوفاء بالوعد والأمانة عملا بقول الله تعالى"**يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**[2]، وقوله تعالى "**واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم**"[3]، وبقوله تعالى "**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها**"[4].

وأما عن صفات المنافقين وبعض سماتهم، فهى كثيرة كالكذب ومحاولة اخفائه بالأيمان الكاذبة ونحو ذلك، والصد عن سبيل الله تعالى وتثبيط همم المسلمين عن الجهاد ونحوه، والخوف (يحسبون كل صيحة عليهم) والكبر والتعالى عن قبول الحق، والخداع والغش والمراوغة واثارة الخلاف بين المسلمين، والبخل والشح فى الصدقات والأنفاق فى سبيل الله. وان من يتتبع القرآن الكريم يجد العديد من الآيات التى تتحدث عن

---

(١) *صحيح مسلم جـ١ ص ٧٨ - باب بيان خصال المنافق - طبعة أولى - عيسى الحلبى وصحيح البخارى جـ٢ ص ٩٥٢ باب من أمر بإنجاز الوعد - طبعة دار القلم بيروت.*

(٢) *سورة التوبة آية ١١٩.*

(٣) *سورة النحل آية ٩١.*

(٤) *سورة النساء آية ٥٨.*

النفاق وتفضح المنافقين وتكشف أحوالهم وتبين خبايا نفوسهم .. هذا ونعود الى قوله تعالى **"قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم.."** الى آخر قوله تعالى **"ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون"** لنقف على بعض الحقائق التى اشتمل عليها ثم نذكر المعنى العام للنص الكريم بأكمله ان شاء الله تعالى.

اولا : الأعراب هم أهل البوادى - أما العرب فهم سكان الحواضر وأن من ينظر الي طباع الأعراب وأخلاقهم يجد فيها شدة وحدة تختلف كثيرا عن طباع وأخلاق العرب سكان الحضر التى تتميز بالهدوء والتمدين.

ثانيا: حقيقة كل من الإيمان والإسلام.

الإيمان فى اللغة: هو التصديق، أى مطلق التصديق بشئ ما تصديقا قلبيا لا يقبل الشك[1].

وأما معنى الإيمان فى اصطلاح الشرع: فهو تصديق النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به وفى كل ماهو معلوم من الدين بالضرورة كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها[2].

والإسلام فى اللغة: هو الأستسلام والأنقياد الظاهرى.
وفى اصطلاح الشرع هو الخضوع الظاهرى لكل ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال كالقيام بأداء الصلاة والزكاة والصيام والحج ومايتبع ذلك من فروع الأسلام.

---

(١) *انظر القاموس المحيط جـ٤ ص ١١٩ .*
(٢) *أنظر تفسير ابن جرير جـ١ ص ١٠١ .*

يقول ابن منظور فى لسان العرب: والإسلام والإستسلام "الأنقياد" **والاسلام من الشريعة:** اظهار الخضوع واظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم[1].

ثالثا: لفظة: و(لما) جازمة يعنى من أدوات الجزم - وتفيد النفى - ولكن يختص نفيها بالحال فقط .. لأن المنفى بها متوقع الحصول فى المستقبل وهذا هو سر الأتيان بها دون غيرها فى هذا الموضع من النص الكريم - وكأن الله تعالى أراد أن يقول لهم أنكم يا معشر الأعراب لم تؤمنوا حقيقة الي الآن ولكن يتوقع حصول ذلك منكم مستقبلا وقد جاء فى كتب التفسير أنهم أى الأعراب الذين نزل فيهم النص الكريم قد أمنوا كلهم أو بعضهم وحسن ايمانهم. قال فى حاشية الجمل (وما فى لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا بعد"[2].

رابعا: لفظة (يلتكم) معناها ينقصكم .. يقول ابن قتية: هو من لات يليت. ويلوت. وفى لغة أخرى: هى من: ألت يألت ألتا[3]. وقد قرئت اللفظة الكريمة بالقراءتين: فقرأها الجمهور (يلتكم) من لاته يليته كباع ويبيعه.. وقرأها أبو عمرو (لا يألتكم) بالهمز - من ألته يألته بالفتح فى الماضى، والكسر فى المضارع - وهما لغتان فصيحتان - وقد وردت اللغتان فى القرآن الكريم فى الآية التى معنا فى النص (لا يلتكم) وفى قوله تعالى فى سورة الطور "**وما التناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين**"[4].

---

(١) *لسان العرب جـ٣ ص ٢٠٨٠ مادة (سلم).*
(٢) *حاشية الجمل على الجلالين جـ٤ ص ١٨٦.*
(٣) *تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤١٦.*
(٤) *سورة الطور آية ٢١.*

خامسا: لفظة (يمنون) - المن هو تعداد النعم على المنعم عليه - والمن مذموم من الخلق لأن فيه تعيير من المنعم للمنعم عليه. وممدوح من الله تعالى لأن فى تعداد النعم تذكيرا بها وبيان فضل الله على عباده .. والمعنى العام للنص الكريم "**قالت الاعراب آمنا..**" أى زعم الأعراب أنهم امنوا بالله ورسوله فقالوا صدقنا بقلوبنا، فأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم أنكم لم تؤمنوا حقا ولم تدخلوا فى الايمان صدقا لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم ذلك، والا لما مننتم على الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسلام وترك المقاتلة ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة "**ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم**" أى والحال أن الايمان الحق لم يدخل قلوبكم بعد ولم تصلوا الى حقيقته وسوف يحصل لكم الايمان الحق عند اطلاعكم على محاسن الاسلام وتذوقكم لحلاوة الايمان، "**وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم**" أى وان تطيعوا الله ورسوله فى كل ما أمركم به وما نهاكم عنه، وأخلصتم لله ورسوله اخلاصا صادقا، وآمنتم ايمانا كاملا، وتركتم المن على الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لا ينقصكم من أجوركم شيئا لأن الله تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة يتجاوز عن عباده ويعفو عن السيئات، ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكمل الصادقين فى ايمانهم المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال سبحانه "**انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**" أى انما المؤمنون الصادقون فى دعوى الأيمان، الذين صدقوا لله ورسوله فأقروا لله تعالى بالوحدانية، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة عن يقين راسخ وايمان كامل - ثم لم يشكوا أو يتزلزلوا فى ايمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين، وبذلوا أموالهم فى سبيل الله وابتغاء رضوانه أولئك الذين صدقوا فى ادعاء الإيمان والدخول فى عداد أهله، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولا آخر لما ادعوا انهم مؤمنون فقال تعالى "**قل أتعلمون**

الله بدينكم والله يعلم مافى السموات وما فى الأرض والله بكل شئ عليم" أى قل لهم يامحمد أتخبرون الله تعالى بما فى ضمائركم وقلوبكم، وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد لا يخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض وهو سبحانه واسع العلم رقيب على كل شئ لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المن عليه منهم بما يدعونه من الاسلام فقال سبحانه **"يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان إن كنتم صادقين"** .

أى يعدون اسلامهم منه عليك يامحمد يستوجبون عليها الحمد والثناء حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، قل لهم يامحمد لا تمنوا على باسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم راجع اليكم لا يتخطاكم الى غيركم، بل لله تعالى المنة العظمى عليكم بالهداية للإيمان والتثبيت عليه ان كنتم صادقين فى دعوى الإيمان، ثم ختم الله تعالى السورة الكريمة ببيان كما علمه واحاطته بجميع المعلومات فقال **"إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون"** أى أن الله تعالى يعلم كل ماغاب عن الأبصار فى السموات والأرض لا يخفى عليه من ذلك شئ، وهو سبحانه مطلع على أعمال العباد وسيجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا . وهكذا نرى الله تعالى كرر الأخبار بعلمه بجميع الكائنات، واحاطته بجميع المخلوقات ليدل على سعة علمه وشموله بكل صغيرة وكبيرة فى السر والعلن والظاهر والباطن . . . والله تعالى أعلم.

وبعد أن استعرضنا السورة الكريمة ووقفنا على ما اشتملت عليه من آداب رفيعة وأخلاق كريمة يتضح لنا وجه تسمية السورة الحجرات بسورة الأخلاق والآداب، فقد اشتملت السورة الكريمة على العديد من الآداب وأرشدت الي مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، وجاء منها النداء بوصف الإيمان خمس مرات وفى كل مرة ارشاد الى

مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل ينمو ويترعرع فى كنفها أفضل المجتمعات وأطهرها على وجه الأرض . . وما بقى علينا معشر المؤمنين إلا أن نذعن لأمر ربنا ،نعمل بكل ما أمرنا به ونقول "**سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير**".

والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

المـــــراجـــــع

١- القرآن الكريم.
٢- صحيح البخارى.
٣- صحيح مسلم.
٤- سنن الترمذى.
٥- تحفة الأحوذى.
٦- سنن ابن ماجة.
٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٨- جامع البيان فى تفسير القرآن.
٩- تفسير ابن كثير.
١٠- تفسير القرطبى.
١١- التفسير الكبير للفخر الرازى.
١٢- فتح القدير للشوكانى.
١٣- تفسير أبى السعود.
١٤- الدر المنثور للسيوطى.
١٥- روح المعانى للألوسى.
١٦- فى ظلال القرآن - لسيد قطب.
١٧- حاشية الجمل على الجلالين.
١٨- القاموس المحيط.
١٩- لسان العرب.
٢٠- غريب القرآن لابن قتيبة.